بسم الله الرحمن الرحيم

– إن العلماء ورثة الأنبياء وأمناء الله في خلقه، فهم منارات الأمة، بهم يحفظ الله الملة وينصر الشريعة، وهم أغيظ خلق الله لشياطين الإنس والجن.

– بهم تحيا القلوب، وهم في الأرض كالنجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر لأنهم ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

– بهم يعرف الحلال من الحرام، ويتميز الحق من الباطل لأنهم يذكّرون الغافل ويعلمون الجاهل ويقومون بالرد على أعداء الإسلام. ولهذا رفع الله ذكرهم وأعلى منزلتهم وبيّن فضلهم وأخبر أن منزلتهم ودرجتهم عالية يقول سبحانه: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة: 11] و{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9].

–فحياة العلماء غنيمة وموتهم مصيبة! فإذا مات العالم فشا الجهل واندرس العلم وتحير الناس وظهر الشر والنفاق يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (خراب الأرض بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير فيها).

– وانظروا إلى واقعنا اليوم حينما قل فينا العلماء الربانيون كثر الجهل والتخبط، وضيعت معالم الدين وحدوده، واختلطت الأمور على الناس، فلا يعلمون الحق ولا يميزون أهله، لأن أهل الحق الصادقين وعلمائَه الربانيين قد غابوا وقلوا وصاروا في الدنيا قليل من قليل وصدق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يَقُولُ: ((نَّ اللهَّ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)).

إن الأمة عندما تفقد علمائها تصبح كالجسد بلا روح وكالمركب بلا شراع، أمة بلا علماء كجيش بلا قائد، ومقاتلين بلا سلاح، فدورهم في تحريك الأمة كبير وأثرهم على الأمة عظيم.

– إن العلماء الربانيين هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، حبهم دين وطاعة، والقرب من مجالسهم خير وعبادة، واحترامهم وتوقيرهم هو من إجلال الله سبحانه وتعالى، وإيذائهم والطعن فيهم ومحاربتهم هو

طعن في الشريعة وأذية لأولياء الله الصالحين يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن ربه تبارك وتعالى: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ)).

– وقد قرن سبحانه وتعالى طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}[النساء: 59] والمقصود بأولي الأمر هنا هم علماء الشرع الصادعين بالحق، والأمراء في الخلق الذين يحكمون بالشرع والعدل.

وأمر الله جل وعلا بالرجوع إلى أهل العلم فيما يشكل على الناس من أمور الدين ومسائله فقال:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43]، [الأنبياء: 7] وقال: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهَّ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء: 83].

إن العالم الرباني هو العالم الذي يهتدي بنور الله ويتمسك بكتابه سبحانه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويدعوا الناس إلى شرع الله، يبلغ رسالة الله لا يخشى إلا الله، ويقول كلمة الحق لا يخشى لومة لائم، يعلم الناس ويتحمل التعب والنصب والمشقة، ولا يتزلف لذي سلطان ولا يتقرب منه ولا يفتي لصالحه بفتاوى سياسية مضلة تهدم الدين وتنفر الناس.

– العالم الرباني هو الذي يحيط بالناس ويقترب منهم بكل أدب وتواضع فينتفعون بعلمه ويجتمعون حوله ويرجعون إليه في قضاياهم وشكاويهم ويسعى في قضاء حاجاتهم وفض نزاعاتهم والإصلاح بينهم ويصبر على التعامل معهم ويسمع منهم ويجلس بينهم فلا يترفع عليهم ولا ينزوي في زاوية بعيد عنهم ولا يتخذ لنفسه مكاناً قصياً أو برجاً عالياً فتحدث الفجوة بينه وبينهم فهو عالم أمة ورجل صدق وتواضع .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)).

يقول عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قلت لأبي: يا أبتي أي رجل كان الشافعي فإني أسمعك كثيراً ما تدعوا له؟ فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا، والعافية للبدن، فهل لهذين من خَلَفٍ؟ أو عنهما من عِوض؟

إن موت العلماء رزية على الأمة بأسرها وموتهم حث لنا على طلب العلم ومواصلة الدرب في طلب العلم حتى نسد الثغرة التي كانوا يسدونها وحتى يوجد في الأمة من يقوم مقامهم ويغطي الفراغ الذي تركوه وإذا كان لكل واحد منا عدداً من الأبناء فهل فكر أن يجعل أحدهم عالماً يخدم الدين ويتفرغ لطلب العلم الشرعي، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)).

ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)).

وليس معنى موت أحد العلماء ضياع الأمة، ففيما بقي من أهل العلم خير كثير ولله الحمد، فالأمة مليئة بالرجال المخلصين، عزاؤنا يا عباد الله ببقاء أهل الحق، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين))

وقال عبد الله بن المبارك: (اعلم أني أرى أن الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا، وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حل بهذه الأمة من ذهاب العلماء وأهل السنة ، وظهور البدع).

ومما يحز بالقلب أنه بموت الداعية ممن له مقام مشكور وإنتاج علمي كبير وصلاح ظاهر وقد يكون منتميا لاتجاه عقدي أو فكري ما لربما يكون محل نقد أو إشكال فترى مواقف عجيبة:

1 – فطائفة أهل توسط واعتدال يرون المقام مقام ترحم ودعاء بالمغفرة وثناء منضبط وذكر لما قدمه الراحل للعلم من خدمات مشكورة دون أن يعني ذلك بحال القبول التام لكل ما عنده من أراء أو الموافقة في الوجهة.

2 –وطائفة تضن بالرحمة والدعاء وترى المقام مقام جرح وتعديل وتحذير وتهويل وبيان للأخطاء وإظهار للمخالفات مع شطط وغلو وكتمان تام للحسنات والمواقف وإبراز للأخطاء بحق أو باطل.

3-وطائفة تترحم وتستغفر وتمدح وتبالغ في الثناء، وتستغل موت العالم للمناكفة وتصفية الحسابات مع الخصوم.

فنسال الله الاعتدال والتوسط وإنزال أهل العلم منازلهم دون مغالاة أو مجافاة.

اللهم اغفر لمن مات من علمائنا وأسكنهم فسيح جناتك واجزهم يا رب عنا خيراً، وبارك ربنا فيمن بقي، واحفظهم بحفظك واكلأهم برعايتك. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربا العالمين